صوت الغربان من أدب السودان

أستاذ مشارك - قسم الأدب والنقد والبلاغة
كلية اللغة العربية- جامعة القرآن الكريم
والعلوم الإسلامية

د. صديق عبد الرحمن إبراهيم موسى

المستخلص:

إن ما أحدثته ثورة القرآن الكريم من تحول في تاريخ البشرية لم يزل في تطور وتحول بنظم محددة كانت وما زالت وستظل برهاناً في مسيرة الحياة الاجتماعية للناس، تحكم الآداب والأخلاق بالمنهاج والسنن الأدبية، ومن هذا المنطلق كان نبينا محمد صلي الله عليه وسلم وهو خاتم الأنبياء والرسل وصاحب المنهاج المتكامل الذي يصلح للعباد إلى قيام الساعة، نبعت أهمية البحث بالنظر إلى أن المنهاج الأدبي لرسالة الإسلام جاء دفاعاً عن حقوق الإنسان، بعد ذوبان التمايز العرقي والعنصري لعرب الجاهلية، وبروز التمايز الأخلاقي في الإسلام. تكمن مشكلة البحث في التدليل علي سعة الأدب الإسلامي واتساع محيطه الأخلاقي في إدارته للمجتمع الإنساني بالمنهجية الربانية علي ضوء الشواهد السلوكية الأدبية في صدر الإسلام، يهدف البحث إلى إبراز الدور الريادي لآلية الأدب في تنقيتها عن نفائس الأخلاق والآداب في أنقاض الجاهلية، وترقية وتقييم وسائل وأساليب العقل البشري الذي صاحب التحول الحضاري في صدر الإسلام، بإرشاد من نور من معاقل الجاهلية، مع بيان الدور الشمولي في التحول الأدبي. منهج البحث هو الاستقراء والوصف والتحليل. وخلص البحث إلى النتائج التالية: إن ثورة القرآن الكريم كانت أول تحول في تاريخ البشرية حفظ حدود الإنسانية بمنهاج قويم يسترشد به الناس في مسيرة حياتهم الاجتماعية، فجاء دفاعاً عن حقوق الإنسان، تأييداً للعقل البشري لدي العرب الذي كان علي الفطرة السليمة لقبول الحجة، ولذلك اكتسب الأدب علميته بعد ظهور الإسلام لشمولية خطابه، فتكيفت معه الآداب العالمية بعداً وقرباً بعد نزول القرآن الكريم، الذي حد من الأخلاق الجاهلية فيما لم يكن تقليدياً عند العرب، ولقد أوصى البحث بدراسة الشعر العربي القديم للوقوف على الأخلاق والآداب الحسنة في معاني الإسلام الأدبي. كلمات مفتاحية: العصر الجاهلي، الأدب الجاهلي، رسالة الإسلام.

The voice of crows from the literature of Sudan

Dr.Sedieg Abdul Rahman Ibrahim Musa/Co-professor

Abstract

The transformation brought about by the Holy Qur'an revolution in human history is still in the development and transformation of specific systems that were, are, and will continue to be evidence in the course of people's social life. And the author of the integrated curriculum that is suitable for the servants until the Hour of Judgment, the importance of the research stems from the view that the literary curriculum of the message of Islam came in defense of human rights, after the dissolution of racial and ethnic differentiation of the pre-Islamic Arabs, and the emergence of moral differentiation in Islam. The problem of the research lies in demonstrating the breadth of Islamic literature and the breadth of its moral surroundings in its management of the human community with the divine methodology in the light of the moral behavioral evidence in the early days of Islam. The human being who accompanied the civilizational transformation in the early days of Islam, guided by a light from the strongholds of pre-Islamic era, with an explanation of the holistic role in the literary transformation. The research method is induction, description and analysis. The research concluded with the following results: The Holy Qur'an revolution was the first transformation in the history of mankind, preserving the borders of humanity with a correct approach that guides people in the course of their social lives. Literature became universal after the advent of Islam due to the comprehensiveness of its discourse, so global etiquette adapted to it after the revelation of the Holy Qur'an, which limited the pre-Islamic ethics in what was not traditional among the Arabs.

Keywords: pre-Islamic era, pre-Islamic literature, the message of Islam.

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومنوالاه

وبعد .

إن ما أحدثته ثورة القرآن الكريم من تحول في تاريخ البشرية لم يزل في تطور وتحول من مرقى لمرقى، وكل ذلك يحدث بقانون ثابت ونظم محددة معلومة، كانت وما زالت وستظل برهاننا يسترشد به الناس في مسيرة حياتهم الاجتماعية المنهجية، ولذلك كانت تعاليم السماء أول

وأوثق المناهج التعليمية التي تمثل مدرسة مفتوحة يتخرج منها الجميع ما بين غانم وناغم، ولما كان النظام الأدبي الأخلاقي من مطالب الحياة كان الموالي عز وجل يتعاهد عباده بالدستور والمنهاج التعليمي الذي يكفل لهم العيش في ظل أعظم نعمة أنعمها الله علي عباده وهي العقل، فكان العقل البشري واحدا والرسالات السماوية متعددة، ولما كانت رسالة الإسلام هي الرسالة الخاتمة لجميع الرسالات السماوية، كان لا بد من أن تكون شاملة جامعة لكل المناهج والطرائق والسنن الأدبية، ومن هذا المنطلق كان نبينا محمد صلي الله عليه وسلم وهو خاتماً للأنبياء والرسل كان صاحب المنهاج المتكامل الذي يصلح للعباد إلي قيام الساعة، وفي هذه الدراسة المتواضعة نقف علي أكبر نقاط التحول تأثيراً في تاريخ الإنسانية من نافذه الأدب الجاهلي، عبر رسالة الإسلام وثورة التحول الأخلاقي حساً ومعنى، علي ضوء المنهجية الشمولية للأدب الوليد يومها، والذي جاء به القرآن الكريم، وخصوصية الإسلام الأدبي التي كانت ومضات لامعة في ظلام العصر الجاهلي لموافقته الأخلاق الإسلامية، ولذلك جاء البحث بعنوان صوت الغربان من أدب الإسلام، لنقف عند مقاطع شعرية تمثل حياة السود الأدبية في فترة ما قبل الإسلام.

صوت الغربان من أدب السودان:

والغربان هم صعايلك العرب وذؤبانها من أصحاب البشرة السوداء، عاشوا حياة متشردة في الصحراء مع الحيوانات والوحوش، وكان اتصالهم بالمجتمع تشوبه العداوة والتعقيد وكثير منهم ينسبون إلا أمهاتهم السوداوات، وبعضهم أدرك الإسلام وأسلموا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، تحدث الشعراء الصعايلك عن مغامراتهم، وتربصهم بأعدائهم، ومهاجمتهم، في نهب من يلقونه في الصحراء الموحشة من البادية العربية، وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعايلك لأنه قائدهم، والصعلكة في مفهومها اللغوي تعني الفقر الذي يجرد الإنسان من وسائل العيش، وتتردد كلمة صعايلك في العصر الجاهلي على ألسنة الشعراء فهذا عمرو بن بركة الهمداني يقول:

قول سليمي: لا تعرض لتلفة ولبلك عنليل الصعايلك نائم

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم

ألم تعلمي أن الصعايلك نومهم قليل إذا نام الخلي المسالم

فالصعايلك في هذه الأبيات ليسوا أولئك الفقراء المعدمين الذين يقنعون بفقرتهم، وإنما هم أولئك المشاغبون المغيرون أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم في النهب والسلب، وهناك عوامل جغرافية وإجتماعية وإقتصادية أدت إلى نشأتهم، وللصعايلك شعرهم ونتاجهم الفني المعبر عن آرائهم وأفكارهم بطواهره الفنية وخصائصه الموضوعية في العصر الجاهلي الأدبي المتصل بفترة المخضرمين، الذين هم امتداد للحياة الأدبية الجاهلية التي اكتملت ملكاتهم الفنية في ظلها. إذ أن العصر الأدبي الإسلامي يبدأ بالشعراء الذين لم يدركوا العصر الجاهلي، واكتسبوا ملكاتهم الفنية في ظل الإسلام، وفي الصفحات التالية نقف مع موضوعات شعرهم التي عبروا فيها عن مواقفهم ومبادئهم الاجتماعية والأقتصادية.

التوعد والتهديد:

يقول الشنفرى متوعدا الذين كانوا السبب لتصلكه:

فإلا تزرني حتفتي أو تلاقني أمش بدهو أو عدا فبنورا
أمشي بأطراف الحماط، وتارة ينفذ رجلي بسيطا فعصنرا⁽¹⁾
ثم يشير إلى بعض الصفات المحمودة في خصمه، فيقول:

فإن ابن ترني إذا جئكم أراه يدافع قولاً عنيفا
قد افنى أنامله أزمه فأمسي يعرض على الوظيفة
فلا تقعدن على زخة وتضمري في القلب وجدا وخيفا
ولا تقدمن على خطة تكون إذن لك حتفا ذيفا
ولا أبغينك بعد النهي وبعد الكرامة شرا ظيفا
ولا أرفعنك رقع الصديق لأم فيه الصانع الكتيفا⁽²⁾

وصف الأسلحة:

وصف الشعراء الصعاليك أسلحتهم، فهي عدتهم في المغامرات، وهي نفس الأسلحة التي
عرفتها العرب في العصر الجاهلي، كالسيف، والرمح، والقوس، والسهم، والدرع، والترس، والمغفر. فهم
لا يملكون غيرها لأن حياتهم فقيرة، يقول تآبط شرا في رثاءة للشنفرى:

على الشنفرى ساري الغمام ورائح غزير الكلى أو صيب الماء باكر
فلا يبعدن الشنفرى، وسلاحه الحديد، وشد خطوة متواتر⁽³⁾

ويصف الشعراء الصعاليك أسلحتهم لونها، وشكلها، وصوتها، وطريقة صنعها، وطريقة
استخدامها، وقيمتها في حياته، وفعلها في أعدائه، فالسيف عند عمرو بن بركة يجب أن يكون
صاحبه من أبناء الليل الذين يراعون حقه يقول:

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم
غموض إذا عض الكريهة لم يدع له طعاما، طوع اليمين ملازم
متى تجمع القلب الذي وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم⁽⁴⁾

وصخر الغي الهذلي يرسم لسيفه صورة دقيقة، فهو سيف من حديد جيد أصيل، منتقى،
معدوم النظير يقول:

وصارم أخلصت خشيبته أبيض مهو في متنه ربد
فلوت عنه سيوف أريح إذ باء بكفي ولم أكد أجد
فهو حسام تتر ضربته ساق المذكي فعظمها قصد⁽⁵⁾
أما تآبط شرا فيعرض علينا صورة طريفة لسيفه يقول:
فطار بقحف ابنه الجن ذو سفاسق قد أخلق المحملا
إذا كل أمهيته بالصفاء فحد ولم أره صيقلا⁽⁶⁾

أحاديث الفرار:

يتحدث الصعاليك عن فرارهم وهربهم، دون خجل فهو أمر طبيعي من قوم عدائين، بل هو سلاح من أسلحتهم يضمن لهم تحقيق أهدافهم الاجتماعية والاقتصادية، وقد اشتهر صعاليك هذيل بفرارهم عدوا على أرجلهم يقول شاعرهم:

وتجر مجرية لها لحمي إلى أجر حواشب
حتى إذا انتصف النهار وقلت يوم حق ذائب
رفعت عيني الحجاز إلى أناس بالمناب
وذكرت أهلي بالعراء وحاجة الشعث التوالب
المصرمين من التلاد اللامحين إلى الأقارب⁽⁷⁾
ولا يجدون حرج في التحدث إلى محبوباتهم عن هربهم وفرارهم يقول الشاعر:
ألا هل أتى ذات الخواتم فرتي عشية بين الجرف والبحر من بحر
عشية كادت عامر يقتلونني لدى طرف السلماء راغية البكر
فما الظبي أخطت حلقة الظفر رجله وقد كاد يلقي الموت في حلقة الظفر⁽⁸⁾
سرعة العدو:

تحدث شعراء الصعاليك عن سرعة عدوهم، لشعورهم بأنها ميزة تفردوا بها وحذا أساس نجاتهم من المواقف الحرجة، يصف صخر الغي صاحباً له بشدة العدو فيشبهه بحمار وحش ضامر تعضه الحمر فيفر منها هارباً:

معي صاحب داجن بالغزاة لم يك في القوم وغلا ضعيفا
ترى عدوه صبح إقوائه إذا رفع المأبضان الحشيفا
كعدو أقب رباع ترى بفائله ونسائه نسوفا

الغزوات على الخيل:

تحدث الصعاليك عن عزواتهم على الخيل على الرقم من مقدرتهم على العدو، وإن بعضهم لم يكن عداء قال الشنفرى في فرسه اليعموم:

ولا عيب في اليعموم غير هزاله على أنه يوم الهياج سمين
وكم من عظيم الخلق عبل موثق حواه وفيه بعد ذاك جنون⁽⁹⁾

الشنفرى يضيف صفات التصعلك على جواده، فهو جواد هزيل كصاحبه، جنى عليهما الفقر والجوع، ولكنه كصاحبه أيضا جريء مقدام، يشعر كما يشعر صاحبه بأن الحق للقوة، وأن الرزق في الشجاعة، وأن الجواد الخامل كالصلوك الخامل. وتأتي طرافة الصورة أيضا من أن الشنفرى يلون صورة جواده بألوان مغامراته، وكم حوى من خيل سميئة قوية موثقة، كشأنه هو مع أفراد مجتمع الأغنياء، وهكذا يقدم الشنفرى جواده على أنه جواد صلوك، بعد مقتل الشنفرى حزن تأبط شرا ورثاه وذكور جواده الصلوك في مرثيته، وتحدث عن قتاله وعزمه وقوسهوسيفه وفرسه فقال:

وأشقر غيداق الجراء كأنه عقاب تدلى بين نيقين كاسر
يجم جموم البحر طال عبابه إذ فاض منه أول جاش آخر⁽¹⁰⁾

الآراء الاجتماعية والاقتصادية:

من الطبيعي أن يعلل الشعراء الصعاليك لمغامراتهم الدامية التي وهبوا لها حياتهم، وأن يفسروا الدوافع التي دفعتهم إلى تلك الثورة التي أشعلوها في وجه مجتمعهم، حتى تكون حركتهم التي وصفها مجتمعهم بالشذوذ قائمة على أساس معلل مسبب، وحتى تكون إجاباتهم حاضرة لكل من يسألهم، والعقد التي اشترك فيها جميع الصعاليك، وتحدث عنها جميع شعرائهم فهي الفقر، تلك الظاهرة الاجتماعية والاقتصادية التي كانت السبب الأقوى في تصلكنهم، وفي ذلك قال الأعلام الهذلي:

زعمت خناز بأن برمتنا تغلي بلحم غير ذي شحم
إنا لنأكل لحمنا، فاستيقني في غير منقصة ولا إثم⁽¹¹⁾

وفي قصيدته البائية المشهورة يرسم صورة إنسانية مؤثرة، وهو يفر من أعدائه بعد مغامرة في سبيل العيش، وقد ذكر أهله الفقراء وحاجة أولاده الصغار الذين خلفهم وراءه ينظرون إلى أقاربهم في انتظار ما يوجدون به عليهم فيقول:

وذكرت أهلي بالجراء وحاجة الشعث التوالب
المصرمين من التلاد اللامحين إلى الأقارب⁽¹²⁾

ويسجل تأبط شرا في قافيته المفضلية وصفا دقيقا لحاله مع المجتمع فيقول:

بل من لعذالة خذالة أشب حرق باللوم جلدي أي تحراق
يقول أهلكت مالا لو قنعت به من ثوب صدق ومن بز وأعلاق
عاذلتي إن بعض اللوم معنفة وهل متاع وإن أبقيته باق⁽¹³⁾

تحدث الصعاليك عن صبرهم على الجوع واحتمالهم له، متخذين من هذا الحديث مجالا للفخر بقوة نفوسهم وصدق عزائمهم، ويقدم أبو خراش صورة نبيلة لذلك الجوع، الذي يطيل حبسه حتى يمله فيمضي عنه دون أن يلحقه بعار، وهو يكتفي بالماء فيقول:

وإني لأتوي الجوع حتى يملني فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي
وأغتبق الماء القراح فأنتهي إذا الزاد أمسى للمزج ذا طعم
أرد شجاع البطن قد تعلمينه وأوثر غيري من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم⁽¹⁴⁾

في شعر عروة أحاديث طويلة عن هوان منزلة الصعاليك الاجتماعية، ومقامهم خلف أدبار البيوت، وسوء منظرهم في هذا المقام الذليل، والغضاضة التي يراها عليهم، وكيف يتوارون عن الناس فيقول:

رأيت بني لبني عليهم غضاضة بيوتهم وسط الحلول التكنف
ذريتي أطوف في البلاد لعلنا أخليك أو أغنيك عن سوء محضر

فإن فاز سهم للمنية لم أكنجزوعا، وهل عن ذاك من متأخر
وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعد لكم خلف أدبار البيوت ومنظر
إذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه شكا الفقر أو لام الصديق فأكثر
وصار على الأذنين كلا، وأوشكت صلات ذوي القربي له أن تنكرا⁽¹⁵⁾
ويرسم السليك صورة إنسانية مؤثرة لما تلاقيه خالاته الإماء السود من الضيم والهوان،
وهو عاجز لقره عن أن يفعل من أجلهن شيئا حتى ليثيب رأسه مما يقاسيه نفسيا من أجلهن
فيقول:

ألا عتبت عليّ فصارمتني وأعجبها ذو واللّم الطوال
فإنيّ يا ابنة لقوام أربي على فعل الوضيّ من الرّجال
فلا تصلي بصعلوك نوومي إذا أمسى يعدّ من العيال
ولكن كلّصعلوك ضروب بنصل السّيف هامات الرّجال
أشاب الرأس أني كل يوم أرى لي خالة وسط الرجال
يشق علي أن يلقين ضيما ويعجز عن تخلصهن مالي⁽¹⁶⁾

للشعراء الصعاليك خطة عملية في الغزو والإغارة، كثر في شعرهم الحديث عن الجانب
التنفيذي لهذه الخطة، وكان عروة داعية للصعلك، وأساس دعوتهم أن هذه الخطة هي السبيل
الوحيد للغنى لمن هو في مثل حالتهم، الصعاليك الذين خلعتهم قبائلهم، يشاركون غيرهم
غزوالأغنياء، يحرصون على الانتقام منهم.

أحاديث التشرّد:

قد تحدث الشعراء الصعاليك عن تشردهم في أرجاء الصحراء الموحشة، ووديانها المخيفة،
وافتحروا باهتدائهم فيها دون دليل، يقول أبو خراش:

وإني لأهدى القوم في ليلة الدجى وأرمي إذا ما قيل هل من فتى يرمي⁽¹⁷⁾

ويتحدث تأبط شرا عن شعب من شعاب الصحراء، في جهة نائية مهجورة، ضربت حوله
الجبال نطاقا، حتى غدا الطريق إليه وعرا، وملأته الصخور، وتجمعت فيه آثار من مياه قديمة لا
تُعرف مصادرها، ويفتخر بأنه اهتدى إليه دون دليل، ودون أن يسأل أحدا عنه فيقول:

وشعب كشل الثوب شكس طريقه مجامع صوحيه نطاق محاصر

به من سيول الصيف بيض أقرها جبار، لصم الصخر فيه قراقر

تبطنته بالقوم، لم يهديني له دليل، ولم يثبت لي النعت خابر

به سمات من مياه قديمة مواردها ما إن لهم مصادرا⁽¹⁸⁾

تعرض الصعاليك بالذكر لسبعة وعشرين نوعا من الحيوانات والدواب والهوام مثل: الذئب،
والضبع، والسمع، والنمر، والأسد، والثعلب، والضب، ثم حمار الوحش، والنعام، والوعول، والظباء،
والأرانب، ثم الحيات، والعظايا، ثم النسر، والصقر، والعقاب، والغراب، والبوم، والسماوي، والقمري،
والقطاة، والهدهد، ثم النحل، والجراد، ثم الجن، والغيلان، وفي شعر عروة وصف للأسد، فهو

عريض الساعدين عريض الصدر، رابض فوق أجمة فيقول:

كأن خوات الرعد رز زئيره من اللاء يسكن الغريف بعثرا

تبغاني الأعداء إما إلى دم وإما عراض الساعدين مصدرا

بظل الأباء ساقطا فوق متنه له العدو الأولى إذا القرن أصحابا⁽¹⁹⁾

إن الشعراء الصعاليك ليسوا كشعراء العرب الذين تفرغوا للفن مثل ما كان عليه زهير بت أبي سلمفي حولياته، أو أمرؤ القيس في حياته الالهية المطمئنة، أو النابغة في حياته المستقرة في بلاط المناذرة والغساسنة، ولا شك أن حياة الصعاليك كانت حياة قلقمة مضطربة، وأنهم جميعا كانوا يشعرون بأن حياتهم قصيرة وأنهم على موعد مع الموت، وكانوا يقلدون النماذج الفنية للشعر العربي ويعلمون أن ذلك لن يغير كثيرا من تقاليدهم الفنية الأساسية، ولا يسعون لتبديل حياتهم الاجتماعية المتمردة على القبيلة.

التخلص من المقدمات الطليية:

تخلص الشعراء الصعاليك من المقدمات الطليية وحرصوا على الوحدة الموضوعية في شعرهم؛ ولا يبدأون بمقدمة غزلية، مثل الشعراء القبليين، كتلك التي يتدله الشاعر في جها وببي أيامه معها، ويقف على أطلال ديارها، ويدعو أصحابه إلى الوقوف معه، ولكنها عند الصعاليك المرأة المحبة الحريصة على فارسها، التي تدعوه دائما إلى المحافظة على حياته، وهذه براعة ممتازة أن يضع الشعراء الصعاليك في مستهل قصائدهم صورة للأثنى الضعيفة التي يظهر صاحبها إلى جوارها بطلا قويا مستهينا بحياته من أجلها يقول تأبط شرا:

تقول سليمي لجاراتها أرى ثابتا يفنا حوقلا

لها الويل ما وجدت ثابتا ألف اليمين ولا زملا⁽²⁰⁾

إن المقدمة الطبيعية في شعر الصعاليك هي ذلك الحوار بين الشاعر وصاحبه حول مغامراته، وليس تلك المقدمة الغزلية التقليدية التي رأوا أنها غير مألوفة في شعرهم، ولم ينج الصعاليك في بعض الأحيان من التقليد الفني للشعر الجاهلي القبلي، ومن هنا نجد تلك المطالع المصرفة في بعض نماذجهم الفنية.

التحلل من الشخصية القبليية:

إن هذا التحليل يتفق مع ظاهرة الصلعة والتوافق الاجتماعي بين الصعاليك وقبائلهم مما ترتب عليه فقد الإحساس بالعصبية القبليية في نفوسهم. ومن الطبيعي ألا تظهر شخصية القبيلة عند شاعر فقد إحساسه بالعصبية القبليية، فلا يكون الشاعر الصعلوك لسانا لعشيرته لأن ما بينه وبين عشيرته قد انقطع، وتخلص الصعاليك من الشخصية القبليية في شعرهم فأصبحوا شخصية فنية شاذة في الشعر الجاهلي كما كانوا شخصية اجتماعية شاذة في حياتهم، فأطلق عليهم أصحاب المذهب الشاذ في الشعر الجاهلي.⁽²¹⁾

القصصية والواقعية:

إن شعر الصعاليك قصصي يسجل فيه الشاعر كل ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة التي تصلح مادة للفن القصصي، فمغامراتهم الجريئة التي كانوا يقومون بها فرادى

وجماعات وما كان يدور فيها من صراع دام مرير، وأخبار فرارهم وعدوهم، وتشردهم في أرجاء الصحراء بين وحشها وأشباحها، وتربصهم في انتظار ضحاياهم، كل ذلك من مظاهر حياتهم مادة صالحة للفن القصصي، قال الأصمعي إن كثيرا من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه وإن امرأ القيس أول من اصطنع القصة في شعره، وأن تاريخ القصة في الشعر العربي يبدأ بامرئ القيس. وأما الواقعية فاتخاذهم الحياة بما فيها من خير وشر مادة لموضوعاتهم، مبتعدين عن الإمعان في الخيال إمعانا ينقلهم من عالم الواقع إلى عالم الأوهام، فقد صور الشعراء الصعاليك فنههم في البيئة البدوية التي يعيشون فيها بكل مظاهرها، الصحراء القاسية بشعابها وجبالها وأغوارها، وصخورها ومياهها، وحرها وبردها، ولياليها المظلمة الرهيبة، وحيوانها الشارد في آفاقها، ووحشها الرابض في أرجائها، وحشرات المتوارية في جحورها والساربة فوق رمالها، وصوروا مظاهر الطبيعة المختلفة كما شاهدوها: طلوع الفجر، وغروب الشمس، والندى المتساقط في أول الليل وفي آخره، والبرق والرعد، والسحاب والمطر، وصوروا الحياة الواقعية التي يحيونها بكل ما فيها من واقع خير وواقع شرير: الكرم والمروءة، والعطف على الفقراء والمرضى والضعفاء، والسلب والنهب وسفك الدماء، وبكل ما فيها من محاسن وعيوب: الشجاعة والبطولة، والقوة والمغامرة، والهرب والفرار، والفقير والجوع والهزال والهوان، وصوروا الشخصيات الإنسانية التي يتصلون بها كما يرونها في الواقع المحسوس بكل ما بينها من تباين واختلاف: الأعداء والأصدقاء، والصعاليك العاملين والصعاليك الخاملين، والنساء المشجعات والنساء المثبطات، والنساء المعجبات والنساء المتهكمات، والأغنياء المترفين والصعاليك المعوزين، كل هذه الجوانب من الحياة الواقعية هي الأسس التي أقام عليها الشعراء الصعاليك بناءهم الفني واستكمال الصورة العامة لقصيدتهم، والصراحة في التصوير، وتسجيل الواقع وتحدد العبارة تحديدا واضحا لا غموض فيه.⁽²²⁾

السرعة الفنية:

تأتي سرعة العمل الفني عند الشعراء الصعاليك لإندفاعهم وعدم توقفهم حتى يصلوا إلى غايتهم فكان شعرهم صدى نفسيا لتلك السرعة، ومن ذلك انتشار المقطوعات والقصائد القصيرة في شعرهم، وتخلصهم من المقدمات الطويلة، ومن التصريح، وهي مظاهر ترجع إلى الشكل العام أو البناء الخارجي للعمل الفني، إن حياة الشاعر الصعلوك لم يتح له الاطمئنان بما يجعله يتمهل في عمله الفني أو يتأني فيه، ويروى أن السليك مضى للغارة مع صعلوكين التقى بهما في طريقه، ثم مضى وحده ليستكشف لهما خبر نار لاحت لهم، حتى إذا ما بلغها ووجد أن ليس عندها سوى عبيد وإماء يسهل التغلب عليهم، رفع عقيرته متغنيا بهذين البيتين ليعلم صاحبيه أن الفرصة سانحة:

يا صاحبي ألا لا حي بالوادي إلا عبيد وآم بين أذواد

أنتظران قليلا ريث غفلتهم أم تعدوان فإن الريح للعادي⁽²³⁾

فالصنعة الفنية لم تكن هدفا يحرص عليه الشاعر الصعلوك، وإنما كل حرصه على أن يبلغ صاحبيه هذه الرسالة وإن الشعر عندهم لم يكن حرفة تقصد لذاتها يفرغ صاحبها لتجويدها

للوصول بها إلى مصاف الشعراء، وإنما كان الشعر عندهم وسيلة يسجلون بها مفاخرهم، أو ينفسون بها عما تضيق به صدورهم.

إن ما ذكرناه من شعر الصعاليك يمثل صورة أدبية من حياتهم الإجتماعية والثقافية والإجتماعية ويوجد موضوعات شعرهم ومبادئهم ومواقفهم، ولذلك كانت تلك الأشعار تمثل صوت الغربان في البيئة العربية ذلك الصوت الذي سرى إلى آفاق الإسلام فرد أيهم هيبتهم وأزال عنهم عقدهم فأصبحوا في ميزان أدبي وأخلاقي واحد مع سادات العرب وهو الإسلام.

صوت الغربان في ميزان الأدب الإسلامي:

إذا كانت العرب تتحدث عن نفسها وبيئتها دون أن تعير شعوب العالم الأخرى أي اهتمام، فإن رسول الله صلي الله عليه وسلم من ولد عدنان ومن أشرف سادات العرب، ولكنه لم يرسل إلي العرب خاصة بل أرسل إلي العالم اجمع (مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَكَثُرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ⁽²⁴⁾)⁽²⁸⁾ فوجد مفهوم الأخلاق عند العرب لا يرقى إلي مستوي العالمية بما يتفق ورسالة الإسلام، لأن الإسلام دين متكامل يتعامل مع جميع الأوضاع الاجتماعية ناقداً وموجهاً، مستلهماً العبر من ماضي الأمم معالجاً لأحداث الساعة، واضعاً العلاج لما يجد ويحدث في مستقبل الأيام. بهذا المفهوم أصبحت الأخلاق بوجهها الآخر (الأدب) رسالة عالمية وقانوناً دائماً بدوام السموات والأرض، ميزانها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومن هنا تنطلق صحة عالية بأن القرآن الكريم والسنة النبوية هما الأدب والإسلام، ولذا نجد أن الإسلام يعطي قراءة دقيقة لكل ما يعرض عليه، ونجد أن مؤشر القراءة يرتفع وينزل طردياً مع قيمة الأدب والأخلاق، فكلما كان المؤشر عالياً كان الأدب محموداً، وكلما كان المؤشر نازلاً كان الأدب مذموماً، ولم يعد الأمر متروكاً للمقاييس العالمية لتتحكم في قيمة الأدب، ولما كانت هذه هي قيمة الأدب أعد الله لها أديباً من بين العرب (رسول الله صلي الله عليه وسلم) قال الله تعالي: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ⁽¹⁹²⁾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ⁽¹⁹³⁾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ⁽¹⁹⁴⁾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ⁽¹⁹⁵⁾)⁽²⁵⁾ وقام رسول الله بتعميم رسالة الإسلام عندما قال: (يا أيها الناس! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: فيبلغ الشاهد الغائب»⁽²⁶⁾

فهذا البيان العظيم والخطاب العالمي (يا أيها الناس) الذي جعل من التقوى مقياساً للتفاضل بين العرب والعجم والأسود والبيض، بهذا تحولت الحياة العربية حسياً بالدخول في نعمة التوحيد (إن ربكم واحد) وما يلزم من ذلك، ومعنويًا بكسر حاجز التمايز العرقي والعنصري (إن أباكم واحد) وما يترتب على ذلك.

إن منهاج رسالة الإسلام جاء دفاعاً عن حقوق الإنسان، وعمل على إذابة التمايز العرقي والعنصري لعرب الجاهلية، وإبراز التمايز الأخلاقي والأدبي في الإسلام، على ضوء شمولية خطاب الأدب الإسلامي وخصوصية معاني الإسلام الأدبي.

عنتره بن شداد يعتق السودان:

لقد ساوى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين العرب والعجم، وبين البيض والسود.... وهل كانت العرب تعترف بالسود؟... فما زال التاريخ يتمثل بقصة عنتره بن شداد مع أبيه، فلم يكسر حاجز السواد والبياض بينهما إلا الأدب... الذي اتخذته عنتره عدة وعتاداً، حتى رجح بكفة السودان عندما انتزع إعجاب البيض لا عن تأصيل قبلي، ولا عن نسب عرقي، ولا عن لون بشري، ولكن عن جدارة أدبية وأخلاق سلوكية وخلال حميدة ومكارم أصيلة، تمثله هذه اللوحة الأدبية الثمينة (لعنتره) وهي من أغلي المهور الأدبية:

المهر الغالي:

أُنْبِي عَلَيَّ مَهَا عَلِمْتَ فَإِنِّي
فَإِذَا ظَلِمْتُ فَإِنَّ ظَلْمِي بِاسِلٌ
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا
بِرْجَابَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسْرَةٍ
فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصُرُ عَنْ نَدَى
وَحَلِيلِ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً
سَبَقْتُ يَدَايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ
هَلَا سَأَلْتَ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ
إِذْ لَا أَرَأَى عَلَى رِحَالِهِ سَاحِجَ
طَوْرًا يُجْرِدُ لِلطَّعَانِ وَتَارَةً
يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي
وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَاحَ نَوَاهِلُ
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لِأَنَّهَا
وَمُدْجِجٍ كَرِهَ الْكِمَاهُ نَزَالَهُ
جَادَتْ لَهُ كَفِّي بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ
بِرْجَابَةِ الْفَرْعَيْنِ يَهْدِي جَرْسَهَا
فَشَكَّكْتُ بِالرَّمْحِ الْأَصَمِّ تِيَابَهُ
فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السَّبَاعِ يَنْشَنُهُ
وَمِشْكُ سَابِعَةٍ هَتَكْتُ فُرُوجَهَا
رَبِيذِ يَدَاهُ بِالْقِدَاحِ إِذَا شَتَا
لَمَّا رَأَى قَدْ نَزَلَتْ أُرْيَدُهُ
فَطَعْنَتْهُ بِالرَّمْحِ ثُمَّ عَلَوْتُهُ

سَمَحٌ مُخَالِطِي إِذَا لَمْ أُظَلِّمْ
مُرٌّ مَذَاقْتُهُ كَطَعْمِ الْعَلَقِمِ
رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ
فُرِنْتُ بِأَزْهَرِ فِي الشَّمَالِ مُفَدِّمِ
مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكْرَمِي
تَمَكُّو فَرِيصَتُهُ كَشِدْقِ الْأَعْلَمِ
وَرَشَاشِ نَافِذَةٍ كَلَوْنَ الْعَنْدَمِ
إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً مَهَا لَمْ تَعْلَمِي
نَهْدِ تَعَاوُرُهُ الْكِمَاهُ مُكَلِّمِ
يَأْوِي إِلَى حَصْدِ الْقِسِيِّ عَرْمَرِمِ
أَغَشَى الْوَعَى وَأَعْفُ عِنْدَ الْمُغْتَمِ
مِنِّي وَيَبِضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي
لَمَعَتْ كِبَارِقُ تَعْرِكِ الْمُتَبَسِّمِ
لَا مُمَعِنَ هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمِ
مِثْقَفِ صَدْقِ الْكُعُوبِ مَقُومِ
بِاللَّيْلِ مُعْتَسِ الدَّنَابِ الضَّرِمِ
لَيْسَ الْكِرِيمُ عَلَى الْقَنَا مُحَرَّمِ
يَفْضَمَنْ حُسْنَ بَنَانِهِ وَالْمِعْصَمِ
بِالسَّيْفِ عَنْ حَامِي الْحَقِيقَةِ مُعْلِمِ
هَتَاكَ غَايَاتِ النَّجَارِ مَلُومِ
أَبْدَى تَوَاجِدَهُ لِعَبْرِ تَبَسُّمِ
مُهْنَدٍ صَافِي الْحَدِيدَةِ مِخْدَمِ

خُضِبَ الْبَنَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِطْلِمِ
يُحْدَى نِعَالِ السَّبْتِ لَيْسَ بِتَوَامٍ
حَرُمْتُ عَلَيَّ وَكَيْتَهَا لَمْ تَحْرَمِ
فَتَجَسَّسِي أَخْبَارَهَا لِي وَعَلِمِي
وَالشَّاهُ مُمَكِّنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمٍ
رَشَاءٍ مِنَ الْغِزْلَانِ حُرٌّ أَرْزَمِ
وَالْكَفْرُ مَحْبَثَةٌ لِنَفْسِ الْمُنْعَمِ
إِذْ تَقْلِصُ الشَّفَتَانِ عَن وَصَحِ الْفَمِ
عَمْرَاتِهَا الْأَبْطَالُ غَيْرَ تَعْمَعُمِ
عَنْهَا وَلَكِنِّي تَصَائِقُ مُقَدَّمِي
سَوْدَاءَ حَالِكَةِ كَلُونِ الْأَدَمِ
وَابْنِي رَيْبَعَةَ فِي الْغُبَارِ الْأَفْتَمِ
وَالْمَوْتُ تَحْتَ لَوَاءِ آلِ مَحَلِّمِ
ضَرْبُ يُطِيرُ عَنِ الْفِرَاحِ الْجُثَمِ
يَتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُدَمِّمِ
أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانِ الْأَدَمِ
وَلَبَانِهِ حَتَّى تَسْرَبَلَ بِالْدَمِ
وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحْمَمِ
وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامُ مُكَلِّمِي
فَقِيلَ الْفَوَارِسِ وَيَكُ عَنَتْرَ أَفْدِمِ
مِنْ بَيْنِ شَيْطَمَةٍ وَأَجْرَدَ شَيْطَمِ
لُبِّي وَأَحْفَزُهُ بِأَمْرِ مُبْرَمِ
مَا قَدْ عَلِمْتُ وَبَعْضُ مَا لَمْ تَعْلَمِي
وَزَوْتُ جَوَانِي الْحَرْبِ مَنْ لَمْ يُجْرِمِ
لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَيَّ ابْنِي صَمَّصِمِ
وَالنَّادِرِينَ إِذَا لَقَيْتَهُمَا دَمِي^(١٧)

عَهْدِي بِهِ مَدَّ النَّهَارِ كَأَمَّا
بَطَلٍ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ
يَا شَاهَ قَصِّ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ
فَبَعَثْتُ جَارِيَتِي فَقُلْتُ لَهَا اذْهَبِي
قَالَتْ : رَأَيْتُ مِنَ الْأَعَادِي غِرَّةً
وَكَأَمَّا التَّفَتَّتْ بِجِيدِ جَدَابِيَةٍ
نُبْتُ عَمْرًا غَيْرَ شَاكِرٍ نِعَمَتِي
وَلَقَدْ حَفِظْتُ وَصَاهَ عَمِّي بِالضُّحَى
فِي حَوْمَةِ الْمَوْتِ الَّتِي لَا تَشْتَكِي
إِذْ يَتَّقُونَ بِي الْأَسِنَّةَ لَمْ أَخِمِ
وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِغَارَةٍ فِي لَيْلَةٍ
لَمَّا سَمِعْتُ نِدَاءَ مَرَّةٍ قَدْ عَلَا
وَمَحَلَّمُ يَسْعُونَ تَحْتَ لَوَائِهِمْ
أَيَقِنْتُ أَنْ سَيَكُونُ عِنْدَ لِقَائِهِمْ
لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ
يَدْعُونَ عَنَتْرَ وَالرَّمَاحُ كَأَنَّهَا
مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِتُغْرَةٍ نَحْرِهِ
فَارَوْرٌ مِنْ وَقْفِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ
لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى
وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سَفْمَهَا
وَالْحَيْلُ تَفْتَحِمُ الْخَبَارَ عَوَابِسًا
ذُلُّ رِكَابِي حَيْثُ شِنْتُ مُشَايِعِي
إِنِّي عَدَانِي أَنْ أَزُورِكَ فَاعْلَمِي
حَالَتُ رِمَاحُ ابْنِي بَغِيضِ دُونِكُمْ
وَلَقَدْ حَسِنْتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَدُرْ
الشَّامِي عِرْضِي وَلَمْ أَشْتَمُهُمَا

لا نستكثر ذكر هذا الجمع من أبيات معلقة عنتره، فهذا الجانب من تلك اللوحة الأدبية الثمينة دفع ابن السوداء (عنتره بن شداد) ثمن سواده وأعتق السودان من أسر التبعية، بعد أن كفاهم فخراً وعزاً بهذه الأبيات الشعرية التي تواضعت لها عرانيين العرب، ودانت لها أفئدتهم، بعد أن داعبت كبرياتهم، وملكت عليهم عنان الشعر، وكسرت أنفثهم بتناولها للصفات التي تلعب بعقولهم وتؤرق ضمائرهم وتمس كياناتهم.

الأدب وسادات العرب:

فهاهو بن شداد العبسي الشاعر الأسود وقف أستاذاً للأدب أمام سادات العرب، فأرسل صوت الغريبان، وعزف علي مسامعهم من ألحان الشعر وأنغام المعاني ما هاجت له قرائحهم وذاعت به سرائرهم وانقادت له شكيمتهم، فطوّع تفعيلات البحر الكامل ليصب فيها من عذب الكلام، ممزوجاً بأصالة بيانه وعميق بلاغته وسحر معانيه، متوجاً بشجاعته وإقدامه، فصوّر السيف والقلم في رسم فريد التفت حوله العرب وتحلقت عنده ولدانهم، فأوقد ناراً للشعر أضاءت جوانب مظلمة من الأخلاق العربية في العصر الجاهلي والتي تركزت في قرارة نفسها إلي التمييز العرقي والتفرقة العنصرية، فأنزع عنتره فتيل التطبيع بينه وبين آبائه وأقام جسراً تاريخياً للتواصل بين السود والبيض، فكان ذلك نتاج الأخلاق والأدب.

جسر الأخلاق بين الجاهلية والإسلام:

لقد تخلق عنتره بأخلاق عالية جسدها في شعره وبقيت معلماً بارزاً من معالم الجاهلية التي أشاد بهارسولاً للهصلياً للهعليهوسلم فأصبحت جسراً واصلاً بين الجاهلية والإسلام عندما ذكر (عنتره) بيتاً من الشعر ميزه عن سائر الأعراب في الجاهلية وذلك في لاميته المشهورة التي يقول فيها:

والخيل تعلم والفوارس أنني فرقت جمعهم بضربة فيصل
إذا لا أبادر في المضيق فوارسي أولاً أو كلب الرعيــــــــــــل الأول
إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا أشدد وإن يلفوا بضنك أنزل
حين النزول يكون غاية مثلنا ويفر كل مضللٍ مستوهل
والخيل ساهمة الوجوه كأنما تسقى فوارسها نقيع الحنظل
ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كـريم المأكـل

فلما أنشد النبي صلى الله عليه وسلم البيت الأخير من شعر عنتره:

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكـل

قال عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: ما صفلي أعرابيُّ قط فأحببت أن أراه إلا عنتره.⁽²⁸⁾

لقد نال عنتره هذا الشرف بكريم خصاله وجميل أخلاقه ورفيع أدبه الذي ترَفَّع به عن الدنيا من ظلم الآخرين وسلب حقوقهم من أجل المطعم، فوافق شعر عنتره أخلاق الإسلام وهو لم يدركه فكان أدبه من قبيل الإسلام الأدبي الذي أصبح أدباً إسلامياً، ليكون ذلك أول جسر للأخلاق بين الجاهلية والإسلام يربط بين الإسلام الأدبي في الجاهلية والأدب الإسلامي في صدر الإسلام.

قال الأصمعي:

أبيت بالليل على الطوى وأظل بالنهار كذلك حتى أنال به كريم المأكـل أي ما لايغيب فيه عليّ، ومثله قوله: إنه ليأتي علي اليوم انلا أدوقهما طعاماً ولاشرباً أي لا أدوق فيهما، والطوى: خمص البطن، يقال: رجل طيان وطاوي البطن.⁽²⁹⁾
إن الناقد الناظر لبيت عنتره الذي أعجب به رسول الله صلى الله عليه وسلم، يجده

لقاحا أدبيا أصيلا جسد حنكة الأديب الشاعر عنتره عندما أعاد استخدام البيت في لاميته بعد أن مهر اسمه بنفس البيت في معلقته الشهيرة عندما قال:

فَإِذَا ظَلِمْتُ فَإِنَّ ظَلَمِي بَاسِلٌ مُرٌّ مَدَاقَتُهُ كَطَعْمِ الْعَلَقَمِ
وَلَقَدْ أَيْبْتُ عَلَى الطَّوَى وَأَظْلُهُ حَتَّى أَنَالَ بِهِ لَذِيذَ الْمُطْعَمِ
فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعِرْضِي وَإِفْرٌ لَمْ يُكَلِّمْ

انظر لهذا البيت كيف وجد مكانه في خارطة المعاني عندما شكل ذوقا ورسمًا أخلاقيا مع البيتين قبله وبعده، فإنها كلمات لا تقع في أذن سامع من العرب إلا دان بها، غير أن المستبصر في البيتين (من الميمية واللامية) يجد الشاعر قد استبدل كلمة (لذيذ) بكلمة (كريم) ليصب بذلك المزيد من معاني الاشتعال في هذا البيت ليضرم نارا من الأخلاق الرفيعة ويفجر ثورة ملتبهة من المشاعر الحساسة عندما استخدم كلمة كريم التي من معانيها الكرم والكرامة، وهذه معاني تراق من دونها الدماء وتزهق لأجلها الأرواح عند العرب في الجاهلية، فماذا قال ابن منظور عن الكرم؟ جاء في لسان العرب في مادة (كرم): (الكرم من صفات الله وأسمائه وهو الكثير الخير الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه وهو الكريم المطلق، والكريم الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، والكرم اسم جامع لكل ما يُحمد فالله عز وجل كريم حميد الفعال ورب العرش الكريم العظيم، وقد كرم الرجل وغيره بالضم كرمًا وكرامة فهو كريم وكريمة وكريمة ومكرم ومكرمة، ويقال رجل كرم ورجال كرم أي ذوو كرم ونساء كرم أي ذوات كرم.⁽³⁰⁾

فهاهو لسان العرب ينبض من قلبه بكلمة (كريم) لتدل على معاني الأخلاق ومكارمها في الجاهلية والإسلام، ولقد وقف بن منظور عند بيئات العرب متنقلا بين شمائلها وكريم خصالها وبحث في كلمة (كرم) فأضافها مطلقا للرجال والنساء شبيهم وشبابهم كهولهم وولدانهم مما يكشف عن سر معنوي عميق لهذه الكلمة (كرم) ويبين أسباب ولوع العرب وشغفها بهذه الكلمة. وبقدرما تتجلي براعة الشاعر عنتره في اختيار الكلمات والمعاني كلما تناسب ذلك طرديا مع مقدرة وذكاء الناقد (رسول الله صلي الله عليه وسلم) عندما أشاد بهذا البيت تحديدا من شعر عنتره، بعدما صبغه (الرسول الكريم) بصبغة الناقد العربي الأصيل الذي لا يخطئه الكرم، فما الفرق بين (لذيذ) و (كريم)؟.

قال ابن منظور اللذذ واللذذة نقيضا لأم واحدة اللذان لذه ولذ به يَلذذُ ولذذًا ولذذةً والتذذُ والتذذُ به واستلذذ عذهُ لذيذًا ولذذتُ الشيء بالكسر لذذا ولذذةً أي وجدته لذيذا والتذذت به وتلذذت به بمعنى واللذذة واللذذة واللذذُ واللذذوي كله الأكل والشرب بتعمية وكفاية.⁽³¹⁾

بالقاء نظرة نقدية عابرة يتبين الناظر أن كلمة لذيذ يمكن أن تضاف لأي إنسان عربي كان أم عجمي إذ أن الأمر مجرد شعور وإحساس يجده الأكل أو الشارب كريما كان أم بخيلا، شجاعا أم جبانا ذكرا أم أنثى من مشارق الأرض أو من مغاربها، ومن هنا نجد الفرق الشاسع بين الكلمتين (كرم) و (لذذ) وإنه لفرق نعتز به لأنه يبين المقدره العاليه للناقد الأول في الأدب الإسلامي (رسولنا الكريم صلي الله عليه وسلم)، وبذلك يبقى لكلمة كرم أو كريم صفتها وصبغتها عالية الجودة في الجاهلية والإسلام.

إنه لمنهاج أصيل بقيت معه الحجة العقلية للإسلام مع مر الزمان، وما زال ذلك الوميض يبرق في ظلمات العصر الجاهلي، مما مكن الحضارة العربية للإفادة من الإسلام الأدبي لإبراز دور الأدب الإسلامي، عبر المنهجية التربوية للإسلام في دفاعه عن حقوق الإنسان كما رأينا من شمائل عنتر بن شداد.

الرسول صلي الله عليه وسلم مدافعا عن حقوق الإنسان:

كان مبعث النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للسود والبيض فلقد ساوي بينهم في أول بادرة تراعي حقوق الإنسان وتحارب التطهير العرقي، تمهيداً لبسط رسالة الأدب العالمية رسالة الإسلام الخالدة، والتي كانت وما زالت وستظل رمزاً للحرية والكرامة، ومبدأً راسخاً من مبادئ التحرر في الأرض، وحديث (أدبني ربي فأحسن تأديبي)⁽³²⁾، يظل بمعناه فقط لأنه ضعيف ومع كونه ضعيفاً فإن ذلك لا يقدرح في معناه لأن الله عز وجل أعد نبيه لهذه المهمة وفي ذلك قال الرسول الكريم: (إنما بعثت لأتمم مكارم) وفي رواية (صالح الأخلاق)⁽³³⁾، والأخلاق هي الأدب، وإن جميع شعوب العالم تلتقى مع بعضها البعض في قاسم مشترك هو الأدب من بين طائع أو كاره. إن ما أحدثته ثورة القرآن الكريم من تحول في تاريخ البشرية لم يزل في تطور وتحول من مرقى لمرقى، وكذلك يحدث بقانون ثابت ونظم محددة معلومة، كانت ومازالت وستظل برهان تربويًا يسترشد به الناس في مسيرة حياتهما الاجتماعية المنهجية، وما تلك النظم إلا تعاليم الإسلام السمحة.

الخلاصة:

إن ثورة القرآن الكريم وما أحدثته من تحول في تاريخ البشرية علي يد رسول الله صلي الله عليه وسلم، كان أكبر حدث علي وجه الأرض جرت به النظم والقوانين التي أصبحت دستورا لتعاليم السماء بكامل منهجيتها الاجتماعية، ولقد كانت نافذة الأدب الإسلامي أول معابر الرسالة العالمية للإسلام ونقطة التحول الأخلاقي حساً ومعنى، على ضوء المنهجية الشمولية ما بين عالمية الأدب الإسلامي الذي جاء به القرآن الكريم، وخصوصية الإسلام الأدبي الذي كان ومضات لامعة في ظلام العصر الجاهلي.

لقد كانت السنة النبوية هي الدليل على شمولية الأدب الإسلامي واتساع محيطه التربوي والأخلاقي في إدارته للمجتمع الإنساني بالمنهجية الربانية على ضوء الشواهد الأدبية لتراث البيئة الثقافية للشعر العربي القديم، لقد جاء منهاج رسالة الإسلام دفاعاً عن حقوق الإنسان، بعد ذوبان التمايز العرقي والعنصري لعرب الجاهلية، وبرز التمايز الأخلاقي والأدبي في الإسلام، وتشديد جسور الأخلاق بين الجاهلية والإسلام للربط بين الإسلام الأدبي في الجاهلية والأدب الإسلامي في صدر الإسلام. إن الدور الريادي لآلية الأدب الإسلامي في تنقيتها عن نفائس الأخلاق والآداب في أنقاض الجاهلية، كان ترقية وتقييماً لوسائل وأساليب العقل البشري الذي صاحب التحول الحضاري في صدر الإسلام، وإن العقل البشري لدي العرب كان على الفطرة السليمة لقبوله الحجّة والبرهان على ضوء ما كان متجسداً في بيئته من الواقع الأدبي.

النتائج:

إن ثورة القرآن الكريم كانت أول تحول في تاريخ البشرية حفظ حدود الإنسانية بقانون ثابت ونظم معلومة، هي المنهاج الذي يسترشد به الناس في مسيرة حياتهم الاجتماعية، فجاء دفاعاً عن حقوق الإنسان، تأييداً للعقل البشري لدى العرب الذي كان علي الفطرة السليمة لقبول الحجة، ولذلك اكتسب الأدب عالميته بعد ظهور الإسلام لشمولية خطابه، فتكيفت معه الآداب العالمية بعداً وقراباً بعد نزول القرآن الكريم، الذي حد من الأخلاق الجاهلية فيما لم يكن تقليدياً عند العرب، فذاب التمايز العرقي لعرب الجاهلية مع وبروز التمايز الأخلاقي للإسلام، ولقد جسّد الشاعر عنتره معاني الإسلام الأدبي في شعره، وأقام جسراً واصلاً بين الإسلام الأدبي والأدب الإسلامي، وظل الشعر العربي القديم مجالاً للإعجاز بنظمه وأبحره وتفعيلاته ونغماته، فكل ما كان موافقاً للشرع قبل بعثة الإسلام يندرج تحت مسمى الإسلام الأدبي الذي كانت تترجمه الشعراء إلى معاني أخلاقية سامية.

التوصيات:

1. القرآن الكريم وسنة الرسول محمد صلي الله عليه وسلم هما مرجع الآداب والأخلاق عامة والعربية على وجه الخصوص.
2. بحث ودراسة الشعر العربي القديم من أجل التنقيب عن الأخلاق الحسنة في معاني الإسلام الأدبي، والوقوف على إعجازه اللغوي في النظم والمعني والأسلوب.
3. عكس روح الأخلاق والآداب بالنقد التوجيهي بما يجعل من البيئة المعاصرة مضماراً لتطبيقات الشعر العربي القديم من منظور إسلامي.
4. الاعتناء بأشعار من ذكرهم رسول الله صلي الله عليه وسلم بخير من أدباء الجاهلية من أمثال عنتره بن شداد.

الهوامش:

- (1) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليفة، دار المعارف، الطبعة الرابعة ص19
- (2) المرجع السابق ص194
- (3) قَشْرُ الْقَسْرِ، العميد أبو سهل محمد بن الحسن العارض الزُّوزَنِي، تحقيق: دكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، 1427 هـ - 2006 م، ج1، ص18
- (4) الأمالي في لغة العرب، إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دارالكتبة العلمية، بيروت، 1398هـ، 1978م، ج2، ص122.
- (5) نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1423 هـ ج6، ص206.
- (6) الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة، 1423 هـ ج1، ص306
- (7) الشعراء الصعاليك (مرجع سابق) ص233
- (8) المرجع السابق ص213
- (9) حماسة الخالدين بالأشبه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين، الخالديان أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي، وأبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي، تحقيق الدكتور محمد علي دقة، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، 1995.
- (10) المرجع السابق
- (11) الشعراء الصعاليك، مرجع سابق، ص233
- (12) شرح أشعار الهزليين
- (13) المفضليات، المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة، ج1، ص30
- (14) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ ج1، ص729
- (15) العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1404 هـ، ج2، ص347
- (16) 16. الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة 1417 هـ 1997 م، ج2، ص89
- (17) الشعراء الصعاليك، مرجع سابق، ص242
- (18) المرجع السابق ص313
- (19) المرجع السابق ص244

- (20) الشعر والشعراء، مرجع سابق، ص 17
- (21) الشعراء الصعاليك، مرجع سابق.
- (22) المرجع السابق ص282
- (23) أمثال العرب، المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الأولى، 1424 هـ، ص37
- (24) سورة سبأ 2
- (25) سورة الشعراء
- (26) أخرجه أبو نعيم في الحلية (3 / 100) والبيهقي في شعب الإيمان عن جابر رضي الله عنه، والألباني في السلسلة الصحيحة 6 / 449
- (27) جمهرة أشعار العرب لأب يزيد القرشي دارالأرقم، بيروت تحقيق: عمر فاروق، ج1، ص147.
- (28) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، ج8، ص250
- (29) المرجع السابق، ج8، ص249.
- (30) لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دارصادر، بيروت، الطبعة الأولى، ج12، ص510.
- (31) المرجع السابق، ج2، ص506.
- (32) سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (1 / 172)
- (33) سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني(75/1)